الخطباء والمرشدون مطالبون بتحمل مسؤولياتهم!

الخطاب الدعوي.. كبوة كيف نتجاوزها؟

ظاهرياً.. نستطيع القول بوجود أزمة في الخطاب الدعوي الإرشادي.. اتسع مداها خلال الفترة الماضية مُخلفة نتوءات تجاوزت في بعض الأحيان منظومة القيم التي تحتكم للثوابت والعقل.

وفي خضم هذا اللغط ظهرت مفاهيم وقيم لا تستقيم ووسطية واعتدال الدين ولا ترسخ قيم التسامح الديني، مما نتج عنه صبغ الخطاب بملامح تنزع لمثالية الماضي، والواحدية، والعنف باتجاهاته المختلفة..الخ.

بالتأكيد إنه إرث غير متوقع في مطلع ألفية جديدة تفضي تحولاتها الى إفراز مفاهيم وقيم أكثر عقلانية كالديمقراطية- وحقوق الإنسان- والقبول بالآخر ضمن آليات حوار واضحة دون تجاوز للثوابت.

وراهناً تحاول وزارة الأوقاف والإرشاد تنقية الخطاب الدعوي الارشادي من الشوائب التي علقت به والتي تدخل ضمن مشاريع مؤطرة لصالح أحزاب أو جماعات، حيث يطرح المعنيون بالخطاب الدعوي الارشادي رؤى مستنيرة للنأي بالخطاب من كبوته الحالية وذلك من خلال برنامج تأهيلي للخطباء والمرشدين وآخر هذه الدورات عقدت بمدينة المكلا الاسبوع الماضي وشارك فيها نحو «٥٠٠» خطيب ومرشد، وقد انصب التركيز في هذه الدورة على الدعوة لتوازن الخطاب الديني وتشخيص أزمة الخطاب الديني المتشدد- ودراسة آفاق الخطاب الديني وملامحه- و حث الإعلام على القيام بدوره في هذا الاتجاه، إضافة الى تحديد أهداف الخطاب الدعوي ووسائله وأساليبه، ومراعاته لمقتضى الحال.

والسؤال الهام، ما الذي ينبغي فعله لتصحيح اعوجاج الخطاب الدعوي؟

- هناك من يطرح أن ثمة أزمة في الخطاب الديني لكن ما هي بواعثها وعلى أي مفاهيم واتجاهات ترتكز وما هي الحلول الناجعة لتقويم اعوجاج هذا الخطاب؟

تشخيص واقع أزمة هذا الخطاب يناقشها الشيخ/يحيى أحمد النجار- وكيل وزارة الأوقاف لقطاع الارشاد فيقول: الخطاب الديني هنا لا يمثل النصوص من قرآن وسنة فهي تعد ثوابت لا مساس بها، بل إن الخطاب الديني مصطلح فكري يشكل منظومة من البُنى الفكرية التي تمثل فهماً معيناً وتأويلاً خاصاً للنصوص الدينية، وتهدف هذه المنظومة الى إيصال مضامين دينية منتقاه للمتلقي وتوجيهها لخدمة أهداف محددة..

ويتحدث النجار بالاستناد على التعريف السالف عن اتجاهين للخطاب الديني الأول هو الخطاب الديني المتشدد الذي يتسم بالنزعة الماضوية والإنحسار الزمني الفكري ورفض الجديد، والثاني الخطاب الديني المنفتح وهو خطاب مرن بمرونة الدين الاسلامي نفسه وقادر على التعامل مع كل عصر وبيئة ومع أي ظروف وبه إمكانية استيعاب المتغيرات بدون الإخلال بجوهر الدين.

تحقيق/ عبدالله محمد حزام

ملامح الخطاب المتشدد

● ويحدد النجار ملامح الخطاب المتشدد من خلال خمسة مرتكزات ويقول: المرتكز الأول: «مثالية الماضي» وهي بنية مركزية في الخطاب المتشدد ومحتواها الفكري أن صورة المجتمع الاسلامي في بداياته والعصور اللاحقة له وحتى عصر ما قبل دخول التكنولوجيا هي الصورة المثالية للمجتمع الاسلامي، وتنتهي هذه النظرة الى محاولة الرجوع بالمجتمع المعاصر الى تلك اللحظة المثالية، أو التشبه بها في مسار يتخلف عن حركة الزمن.

ومن مساوئ هذه النظرة أنها تخفي قلقاً من عدم صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان وقدرته على التعامل مع التكنولوجيا والتطور العلمي والفكري.

ويشير وكيل قطاع الارشاد الى ملمح ثان وهو التشدد والقلق العقائدي الذي يتكئ على بنية فكرية أخرى من بُنى الخطاب المتشدد انعكست بشكل واضح على الرسالة الدعوية، ومصدر هذا التشدد هو الخوف على البنية العقلية التقليدية من الإندثار في عالم متحول لضعف هذه البُنى وهشاشتها وخلوها من المرتكزات الراسخة التي تكفل لها الصمود والاستمرار وتمكنها من مجاراة الآخرين في الفاعلية الحضارية، ويأتي ثالثاً: تقلص الخطاب وانحسار الاجتهاد وهنا يقول النجار: الخوف المضمر من ضياع الهوية والتركيز على الذات ورفض الانفتاح على الذات والآخر تعتبر عوامل لم تتح للخطاب الديني الانفتاح والتوسع على مجالات وآفاق ورؤى جديدة.

وبالنسبة للاجتهاد حسب النجار: فبابه يكاد يكون مغلقاً وآفاقه محدودة وخطوطه الحمراء أكثر من إنجازاته، وما نجده اليوم في المنجز الاجتهادي فهو إما اجتهادات ضعيفة تحاول إسقاط الماضي على الحاضر وتكييف التطورات الراهنة على المنجز الفقهي بصورة سطحية توحي بأن الماضي قد حل كل جزئيات الحاضر والمستقبل.

الواحدية أزمة أخرى

● وفي النقطة الرابعة لملامح الخطاب الديني المتشدد يتطرق وكيل وزارة الأوقاف لقطاع الارشاد الى إشكالية «الواحدية» ويعتبرها أزمة أخرى تتخلل الخطاب الديني المتشدد وتتجلى بطرق عدة فنجد واحدية امتلاك الحقيقة، واحدية المرجعية، واحدية الرأي، واحدية المسئولية..

ويضيف: كان من آثار طغيان هذا المبدأ الواحدي في نسيج الخطاب الديني المتشدد انحسار مساحة التعدد ورفض الرأي والرأي الآخر، ونشوب الصراعات المذهبية الحادة ذات الطابع الإلغائي، واستحداث ظاهرة تكفير المذاهب لبعضها، ما نتج عن ذلك نشوء السلطة الدينية داخل المذاهب والتي تضفي على نفسها القداسة لتأكيد واحديتها..

العنف وأنماطه

● ومن أخطر ملامح الخطاب المتشدد «العنف».. ويعيد النجار هذا الملمح الى واحدية الخطاب وسلطويته والتشدد العقائدي المفرط ويقول: نتج العنف كسلوك يرمي الى منح الخطاب الديني المتشدد قوة الوجود وديمومته ويرمي إلى تكييف الواقع مع الخطاب دون اعتبار للفروق النسبية بين الواقع وأي خطاب كان.

وتتعدد أنماط هذا العنف ومنها حسب ما أورده وكيل قطاع الارشاد: العنف تجاه النفس «الذات»: وهو اتباع مذهب العسر وإهمال التيسير في العبادات والمعاملات، ثم العنف تجاه العقل والارادة: وهي قناعة شاملة بمحدودية العقل أدت الى تقزيم الارادة دون وعي كاف بأبعاد النصوص الدينية التي تخاطب الإنسان وترتقي به عقلاً وإرادة، وقد أدى هذا العنف النظري الى وضع العقل السلبي التام وإيقاف عجلة التطور الحضاري لأن التفكير أصبح ضرباً من الخطيئة.

ومن بين تلك الأنماط- العنف تجاه المرأة: وهو تأكيد للسلطة الذكورية في الخطاب المتشدد الذي لا تتضح هويته إلا بإقصاءات فكرية واجتماعية مختلفة، ولعل من أبرزها اقتران المرأة بالخطيئة والإغواء، ودونيتها إزاء الرجل، وهو ما نتج عنه خلخلة في العلاقات الاجتماعية.

ويشير النجار الى نمط أخير للعنف وهو «العنف الدعوي» الذي ينزع الى استخدام أسلوب الترهيب في مقابل إسقاط أسلوب الترغيب وتفريغ الدين من محتواه المتسامح، حيث انطبعت لغة الدعاة بالطابع التهديدي واللغة المنذرة والصوت العالي مما كرس نمط المُلقي الآمر المنذر والمتلقي المطيع المنصاع، مما أدى الى إهمال لغة الحوار والاقناع والترغيب والجذب بالطرق التي تحترم ذات ونفسية المتلقين ولا تحتويهم أو تجعل منهم صورة للشر أو الخطيئة.

أما خامس ملامح الخطاب المتشدد فهو «العنف تجاه الآخر» والذي يعتبر الآخر ديانة كان أو مذهباً إما عدواً مطلقاً أو طامعاً مطلقاً فهو منبوذ ومستبعد من إمكانية التفاعل معه ومقصي من أي درجة قبول، وهذا واقع العقل الإسلامي في ازدواجية نفي الآخر نظرياً والتعاطي مع منجزاته الحضارية والتكنولوجية واقعياً..

توازن الخطاب الديني

● المنحى السابق للخطاب الديني ألقى بتبعات خطيرة على المجتمع المسلم، والبحث عن آليات توازن للخطاب الديني ضرورة يستدعيها واقع الحال- وللمكانة العالية التي يتربعها الخطاب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد من ضوابط للخطاب الديني والدعوي.

ويعرف الشيخ/جبري إبراهيم حسن توازن الخطاب الديني بقوله: توازن أي تعادل، وتوازن من الاتزان أي الاعتدال- والخطاب هو الكلام والمقصود هو اعتدال القول في الخطب والتعليم والارشاد والمناقشة والكتابة وتنظيمه مع موافقة رحمة الشرع ورجاحة المصلحة والدليل وتوسطه بين الإفراط والتفريط والخفة والشدة.

ويحدد الشيخ جبري حسن ضوابط الخطاب الديني والدعوي بالآتي:

- البصيرة والحكمة والموعظة الحسنة.

- إنصاف المدعو: أي احترامه وتذكيره بإسلامه وكرامته وأن لا يصح ممن هذه صفاته اقتراف الآثام وعدم احتقاره وإهانته، قال تعالى مرشداً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم في خطاب المشركين «وإنَّا وإياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين».. سبأ «٢٤»

ويضيف حسن ضابطاً ثالثاً: وهو أن يقصد التذكير وليس السباب والانتقام من الآخرين وفضحهم والتشفي منهم، ولا يكره الآخرين على اتباعه.

أما الضابط الرابع: فهو الرفق بالمخاطب والرحمة والشفقة عليه وبما ليس فيه عنف ولا شدة ولا نفير.

ويأتي الشيخ جبري- بضابط خامس للخطاب الديني والدعوي وهو: أن يقصد بخطابه ونصيحة الآخر محبة الخير له وأنه مرآة لأخيه تعكس الخلل الموجود دون حرج ولا تشهير مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه»..

كما يشير الى ضابط سادس: وهو أن الناس لا يمكن أن يُكملوا في الدين كلهم وعلى الخطيب أن يعلم يقيناً بأن بلوغ الكمال أمر عزيز ولا بد من النقص فلا يغضب لوجود تقصير من أفراد فيرميهم بالكفر.

أما الضابط السابع فيتمثل في ضرورة أن تكون المصلحة راجحة ولا تكون فتنة، فيما يؤكد الضابط الثامن على ابتعاد الخطاب عن الترفع والتفاصح والتكلف لأن ذلك منافٍ لأخلاق الدين كما أنه لا يكون نافعاً بل سبباً لسخط الله وقد قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : «هلك المتنطعون قالها ثلاثاً»..

بينما يتلخص الضابط التاسع في التكلف في الخطاب للمدعو والسامع، وأخيراً يأتي الضابط العاشر وهو المناقشة بالمنطق السليم والإقناع وتنوع الحجة..

ويتطرق الشيخ جبري حسن الى أنواع الخطاب الديني ويقول: يتنوع هذا الخطاب ليشمل «الخطبة- الدرس- المحاضرة- المناقشة والجدل- الوعظ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- الكتابة- والخطاب الصامت»..

وفي ما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشير الى قواعد مهمة الأولى: المعرفة والعلم بالمعروف الذي يدعو إليه والمنكر الذي ينهى عنه والفهم والفقه بحدود الأمر والنهي وهو معنى البصيرة.

أما القاعدة الثانية: فهي الرفق وتتمثل القاعدة الثالثة: بالنظر في عواقب ذلك وتحقيق المصلحة ورفع المفسدة وتؤكد القاعدة الرابعة: أنه إذا اجتمع المعروف والمنكر فإن كان المعروف أرجح أمر به وإن كان المنكر نهى عنه، وإذا التبس على الداعي توقف حتى يتبين الأمر..

وفي الوقت ذاته شدد الشيخ جبري حسن على تجنب محذورات الخطاب كالرياء والكبر والأطماع، والتثبت من الأخبار وعدم تصديق الشائعات، واتباع العدل في النقد، والحفاظ على الجماعة والحذر من الخروج عن الجماعة.

أهداف وأساليب وميادين

● من غير المنطق أن يترك الخطاب الديني الدعوي عُرضة للأهواء والنزعات بل لا بد من أن يسير بمنهجية واضحة لها أهدافها وأساليبها ورسالتها وميادينها، ويأتي هنا دور القائمين على الخطاب الدعوي.

وحول هذه المنهجية يقول الاستاذ الدكتور/أحمد عمر هاشم- رئيس جامعة الأزهر السابق- وعضو مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف: لخطاب الدعوة أهداف سامية فلا بد أن يستهدف الخطاب الدعوي الخروج بالناس من الإنقياد للأهواء البشرية الى الانقياد لحكم رب البرية، كما يستهدف خطاب الدعوة الرجوع الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في كل أمر من الأمور وفي ما يختلف فيه الناس..

ويضيف: ويستهدف خطاب الدعوة تنقية المجتمعات من البدع والمحدثات التي ليست من الاسلام، اضافة الى أن

مكمن الحل في العودة إلى نقاء العقيدة وتأكيد قاعدة التسامح

الرفق بالمخاطب وإنصافه وتذكيره تحقق توازن الخطاب الديني

الانغلاق على الذات يحد من توسع الخطاب الديني في مجالات جديدة